التوحيد، الدين والتاريخ بين أوغاريت وأورشليم
مقاربات مارك سميث للعهد القديم على ضوء العلوم الأوغاريتية

د. دانيال عيوش

يعمل البروفيسور مارك سميث (Mark S. Smith) في جامعة نيويورك حيث يحاضر ويبحث في حقل الكتاب المقدس والشرق الأدنى القديم، وهو خريج جامعة ييل الأميركية بشهادة الدكتوراه في الدراسات الأوغاريتية. بين أشهر كتبه يذكر **نموذج الحج في سفر الخروج** (١٩٩٧)، **تاريخ الله القديم** (٢٠٠٠ طبعة ثانية)، **نشوء التوحيد في الكتاب المقدس** (٢٠٠١)، **قصص غير مسرودة: الكتاب المقدس والدراسات الأوغاريتية في القرن العشرين** (٢٠٠١)، **وذكريات الله** (٢٠٠٤). ما يجدر ذكره أن سميث يدير هيئة التحرير في مجلاّت علمية عديدة، وأنه عضو تنفيذي في الرابطة الكتابية الكاثوليكية في الولايات المتحدة، كما وأنه حصل على جائزة العلامة ميشال داود التي تمنحها جمعية الأدب البيبليّ (Society of Biblical Literature) لطلائع البحث في الشرق الأدنى القديم.

ينشغل سميث في مسألة التوحيد والتعدد في العبادات الشرقية القديمة، لا سيما الأوغاريتية والإسرائيلية منها، ويشدد في بحثه على نقاط التلاقي بين هاتين الديانتين، إذ أنه يعتقد أن الفصل التام بين التوحيد عند إسرائيل، والتعدد عند الأمم الذي يعلّمه معظم النقاد هو خطأ، كونه فرضية تؤدّي إلى أحكام مسبقة وتعرقل المعرفة العلمية للأمور.

الأديان القديمة في حوار

في القسم الأول من كتابه **نشوء التوحيد في الكتاب المقدس**، يقارب سميث الديانة الأوغاريتية الكنعانية من منظورين أساسيّين: من منظور لغويّ أدبيّ ومن منظور فلسفيّ لاهوتيّ، ويؤكد أنّ "هؤلاء القدامى لم يطوّروا مذهبًا فكريًّا مجرّدًا على نمط المنطق الفلسفي الماورائي، بل عبّروا عن لاهوتهم وواقعهم الديني بواسطة صور ترسم الألوهة في روايات وقصائد" (ص ٩٣). ثم ينتقل إلى وصف مجلس الآلهة في أوغاريت في ما يخصّ العلاقة العائلية بين الآلهة ذات شكل بشريّ والترتيب الوظائفيّ في المجلس. لا شكّ أن هذا النظام كان ذا تلوين خاص هنا وهناك، ولكن الخطوط العريضة كانت شبيهة في الشاطئ الشرقي من حوض البحر المتوسط، أي في منطقة سوريا وفلسطين. انطلاقًا من هذه الفرضية يحاول سميث أن يرسم، في القسم الثالث من هذا الكتاب، خصوصية ديانة شعب اسرائيل الذي دوّن نصوصه الدينية في لغة مشتقة من العائلة الكنعانية. فبالنسبة إلى سميث إنّ نصوص العهد القديم تكوّنت في حضن الديانة الكنعانية بالرغم من التشديد الوارد في العهد القديم على اختلاف ديانة إسرائيل عن باقي الأديان.

الآلهة وأسماؤها

في البدء كان إيل، رئيس مجلس الآلهة عند الكنعانيين وإله الآباء في سفر التكوين. ولكن في ما بعد يأتي يهوه، الذي لا يُعرف في النصوص الكنعانية. ولكن بحسب سميث يساوي الإله بعل الذي احتلّ مكانة

الرئاسة في الديانات الكنعانية والفينيقية أثناء الألف الأول قبل الميلاد. اسم يهوه يعني بالنسبة إلى سميث "الخالق" إذ أن هذا الاسم الرباعي اشتقّ من جذر فعل الكون "ه ي ه" على الوزن "هِفْعِيل" الشبيه بالوزن "تفعيل" في اللغة العربية، والذي يدل على تعدية الفعل اللازم. تاليًا، يهوه يعني الذي يكوّن الكون، أي الذي خلق الكون ويضبطه. مع الوقت أصبحت الصفة "خالق" الملازمة لاسم إيل في العبارة "إيل يهوه" أي "الله الخالق" تحلّ محل اسم إيل. يدعم سميث نظريته بذكر اللقب "أبو البشر" المستخدم بكثافة في النصوص الأوغاريتية لإيل، والذي يتناغم تمامًا مع تفسير اسم يهوه بمعنى "الخالق". هكذا أيضًا يتضح معنى العبارة "يهوه صباؤوت" التي تعني ببساطة "خالق الجنود السماوية".

يضيف الكاتب أن الاسم المركّب "إيل يهوه" قد يدل، من جهة، على خصوصية الإله إيل، كما وأنه قد يدل، من جهة أخرى، على إله تابع لإيل الذي كان دوره في مجلس الآلهة أن يتمّ عملية الخلق وأن يضبط الخليقة. هكذا يفسّر أيضًا أسماء آلهة أخرى كـ "مخائيل" و"جبرائيل" و"رفائيل"، التي، إلى جانب اسم إيل، تحمل صفةً تدل على وظيفتها في مجلس الآلهة (راجع **ذكريات الله**، ص ١١٠ي). هكذا فإنّ "رفائيل" يعني "شافي إيل"، ويشدد إما على دور إيل كشافٍ أو على وجود إله معاون لإيل في قضايا الشفاء، كما أنّ جبرائيل قد يشدد على دور إيل كمحارب ضد قوى الشر أو قد يدل على إله آخر يعاون إيل في محاربة الشرّ.

نشوء التوحيد في العهد القديم

بين طروحات سميث المركزية يذكر أيضًا نظرية لنشوء التوحيد في اسرائيل (راجع **ذكريات الله** ، ص ١١٩-١٢٣). يعتقد سميث أن التوحيد تقوّى في إسرائيل في المرحلة الأخيرة للمملكة وأثناء السبي إلى بابل. طالما كانت المملكة مزدهرة وقوية كان الملوك يجيزون استيراد مجموعات آلهة رئيسية وثانوية تنسجم مع اعتقادات المملكات المجاورة. هذا ليس بغريب إذ أن الدراسات في الديانات القديمة تثبت أن مجلس الآلهة يزداد كمًا عند المدن والممالك الغنية والمتصلة بالتجارة العالمية، بينما المدن الفقيرة والمجتمعات الريفية كانت تكتفي بعبادة عدد صغير من الشخصيات الإلهية. هذا يتفق مع رأي سميث بأن التوجّه إلى التوحيد في إسرائيل أتى عندما خسرت المملكة استقلالها وأراضيها. حينئذٍ قررت السلطة الحاكمة تعزيز شأن الإله المركزيّ في الدولة وتمييزه عن غيره لكي تشدد على سيطرته ليس فقط على شعبه بل على كل الشعوب. ليس إله الأشوريين ولا إله الكلدانيين مَن يقرر مصير شعب إسرائيل، بل إلههم الخاصّ الذي عاقبهم بسبب خطاياهم، ولكن سيقيمهم من جديد بسبب إخلاصه للوعد الذي قطعه مع الآباء في القديم.

يرى سميث أن التوحيد ليس بمذهب عقائدي تكوّن بعيدًا عن الاعتقادات الدينية السائدة آنذاك، بل هو تفسير للواقع أثّر بشكل أساسي على رؤية بني إسرائيل للعالم (**نشوء التوحيد في الكتاب المقدس**، ص ١٥٤). إن ذاكرة بني اسرائيل الجماعية ساهمت في تكوين الرؤية التوحيدية الواردة في الكتاب المقدس بناءً على اعتقادات قديمة جدًا بآلهة متعددة (**ذكريات الله** ، ص ١٢٣). وصلت الذاكرة الجماعية في إسرائيل إلى دمج أفكارها الدينية والتاريخية واللاهوتية في سلسلة واحدة من الوثائق دُوّنت بأسلوب السرد الروائي الذي يمتد من سفر تكوين إلى ٢ ملوك في عرض متواصل لعلاقة الله بشعبه إسرائيل. هذا السرد الكبير خضع لأعمال تحريرية عديدة عبر الزمن، لكنّه بقي يحمل في نصوصه نواة الخبر القديم إلى جانب المعلومات الجديدة التي تعكس الوضع الحياتي الذي دفع المحررين إلى إعادة النظر في النص. لذلك، إنّ محاكاة أبناء إسرائيل لماضيهم على أسفار الكتاب المقدس تحتوي على عنصرين جوهريين: الأول هو الكفاءة في فهم معاني الماضي، والثاني هو

الالتزام بما تبنّاه بنو إسرائيل كماضيهم الخاصّ (راجع **ذكريات الله**، ص ١٢٤–١٥٨).

تاريخ البحث الأوغاريتي

بين مساهمات سميث العلمية نجد أيضًا كتابه عن تاريخ البحث الأوغاريتي الحديث الذي صدر سنة ٢٠٠١ بعنوان: **قصص غير مسرودة: الكتاب المقدس والدراسات الأوغاريتية في القرن العشرين**. يقسم سميث هذا التاريخ إلى أربع مراحل: مرحلة البدايات (١٩٢٨ – ١٩٤٥)؛ مرحلة الاستنتاجات والمقارنات (١٩٤٥ – ١٩٧٠)؛ مرحلة النصوص الجديدة والأزمة في مناهج المقارنة (١٩٧٠ – ١٩٨٥)؛ مرحلة الانبعاث في المناهج والأدوات العلمية (١٩٨٥ – ١٩٩٩). يأتي كل فصل بحواشٍ تقنية طويلة يُذكر فيها أبرز التطورات في المناهج المستخدمة في تلك المرحلة.

علاوةً على ذلك، يعرّفنا الكاتب على المسائل التي شغلت الأخصائيين والتي كانت مدارَ الجدل بينهم. إنه مرجع موثوق ودقيق لكل من يرغب في التعمّق في عالم الدراسات الأوغاريتية في حقلَي الأدب والدين، علمًا أنّ سميث لم يتطرق في هذا الكتاب، إلا بشكل ثانويّ، إلى قضايا التاريخ والمجتمع والاقتصاد في أوغاريت. يركز سميث في النص الرئيسي لهذا الكتاب على سرد الأوضاع الحياتية التي انطلق منها كبار الباحثين وتلاميذهم في عملهم اليومي. ومع أن سميث يقرّ بمعرفة أفضل لتطورات البحث الأوغاريتي في أميركا الشمالية، يجد القارئ صفحات عديدة تخبر عمّا حدث في البحث الأوغاريتي العالمي، كما في فرنسا، حيث نشأ هذا العلم، ثم في إسرائيل حيث ركز الدارسون على تأثير النصوص الأوغاريتية على الكتاب المقدس، وصولاً إلى ألمانيا وإسبانيا حيث أخذت هذه الدراسات مناحي جديدة.

خلاصة

لا شك أن كتابات مارك سميث أيقظت جدلاً مثمرًا بين الأخصائيين، وأن طروحاته فتحت أبوابًا جديدة لمفسّري الكتاب المقدس المسيحيين. دراسته الدقيقة للنصوص الأوغاريتية ومقارنته الفريدة لها مع أسفار العهد القديم ساهمتا في توجيه علم الأديان إلى الحوار مع العلوم اللاهوتية ولاسيما العلوم البيبلية. تستحق كتب سميث قراءة عميقة لدورها الإيجابيّ في ممارسة البحث المتعدد الاختصاصات، ولمقاربتها الإبداعية في المسائل الكلاسيكية، حتى لو بقيت بعض النظريات المطروحة تتطلب التحقق من صحتها في ما بعد.

المراجع:

كتب مارك سميث

The Memoirs of God. History, Memory and the Experience of the Divine in Ancient Israel, Minneapolis: Fortress Press, 2004.

The Origins of Biblical Monotheism. Israel's Ploytheistic Background and the Ugaritic Texts, New York: Oxford University Press, 2001.

Untold Stories: The Bible and Ugaritic Studies in the Twentieth Century, Peabody, MA: Hendrickson, 2001.

The Early History of God: Yahweh and the Other Deities in Ancient Israel, Grand Rapids, MI: Eerdman, 2001.

The Pilgrimage Pattern in Exodus with contributions by Elizabeth M. Bloch-Smith (Journal for the Society of Old Testament Supplement Series 239), Sheffield: Sheffield Academic Press, 1997.